فضيلة بصيليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1440 هـ - 2019 م

ردمك 978-9947-79-397-8 : (ISBN)

اسم العمل: وعادتْ بِـــخُفَّيْ حَنِينْ

اسم المؤلف: فضيلة بهيليل

تصميم الغلاف: سيف الدين لغويل

المدير العام / سميرة منصوري

اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر

صفحة الدار على موقع فيسبوك:

https://www.facebook.com/elmothakaf/

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

هاتف / فاكس 75 65 85 033 / 50 28 76 0666

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر

فضيلة بهيليل
المثقف
للنشر والتوزيع
وعادت بخُفَّي حَنين
موعة قصصية

عُمرك عود ثقاب

وعمري ورق

كلانا خُلِقنا لنحترق"

إهداء

إلى شخص لم أعرفه بعد...

شخص سيأتي ذات يوم ليحلّق بحرفي وحلمي معا..

بعيدا عن النسخ المشوّهة لما يدعى بـ "إنسان"...

" مُسافرة "

مسافرة، لا إلى مكان معلوم، ولا أحد على الضّفة الأخرى بالأحضان سيستقبل شبحي، طويل هذا الطريق الذي يرفس وجعي، ويعجن من صبري فطائر ذكريات، قلتَ في بوحٍ خالطَه ندم: "أحببتُ..." وبتردد أضفت:"ها"، فأدركتُ أن ما قيل كان صحيحاً، وأنّ تلك التي كانت تتردّد على مكتبك كل مرّة لسبب أو لآخر، كانت تريدك أنت لا شروحاتك.

قلتُ بعد يأسي من اجتماعنا: "مبروك"، وهممتُ بالرحيل فلم تقل شيئا.

بدا شبح الذكريات ممزّقا، تعلوه ابتسامة ألمٍ تدلّت على أحد نهايات هدبه فلم يلتقطها، تركها هي الأخرى تغادر حيث تريد، لا فائدة من استبقائك بعد الآن، لا أنت، ولا شيء منك...مكنسةٌ واحدة أحتاجها الآن، هي تلك التي تشطف بالماء أرضية عمري من بقايا زجاجك، فلا تعتقد أن برحيلك سينتهي عالمي، وبأني سأظلّ مكسورة مقهورة أستحضرك في كل مناسبة، وكثيرا بلا مناسبة أيضا.

مررتُ بمنأى عن كل طريقٍ قد يؤدي إليك، أغلقتُ كلّ الممرّات لأني كذلك فعلتُ داخل دهاليز روحي، المَنفذ الحقيقي هو الداخل، عداه... كل الطُّرق أشباه.

طَرقٌ خفيف يمزّق سكون عمري اللحظة. أفتح؟ أنظرُ من الزائر؟ أم أدعه لطرقِه وفضوله خلف بابي؟... فليطرق ما شاء له. قلبي لا يحتاج سُكّاناً من هذا العالم. سيكتفي فقط بذلك اللاّمرئي. هو أوفى منك. لا يحتاج طرقاً، يكفيه اختراق الجدار والأبواب والنوافذ متى شاء. لن يزعجني كل

مـرة بفتـح النافـذة ليـلاً للتهويـة مُدّعِيـاً رائحـة شـكٍّ خانقـة. ولا يبعـثر ملابسي علـى أرضيـة الغرفـة بعـد أن يُخرجهـا بجنـون مـن خزانتهـا بدعـوى الغـيرة. ولا ينتقـدُ كل مـا أقـضي وقتـي بطهيـه مـن أجـل إرضـاء معـدة شـهواته. إنّـه لا يُشـبهك، لا يفعـل كلّ ذلـك يكفيـه أن يجلـس مقابـلاً لحـزني، ينظـر شـوقي، وبحُـبٍّ يُمشّـط ألمـي المنسـدل بحيـائي.

لا أذكـر أنّـه غضـب يومـا منـي فحمـل فراشـه لغرفـة الضّيـوف تـاركاً خـوفي وجوعـي لذئـاب اللّيـل. الآن أُدرك كـم هـو أروع منـك، كـم هـو أهـدأ منـك، وكـم هـو أحـرص علـيّ منّـي ومنـك.

انبلـج الصبـح، ونسـيتُ حتـى أن أسـأل عنـه، عـن اسـمه، عـن مقامـه، عـن عالمـه. سـيطول الوقـت بانتظـار أن أعـرف، هـا هـو هاجـس حـب آخـر غـير حبّـك، يحتـلّ هاجـس لقـاءك، وهـي ذي طاقيـة جديـدة أرتديهـا فـلا أراك.

جلسـتُ بجـواره، كان الوقـت مقاربـا لغـروب شـمس النـدم، لم أفكّـر كثـيرا فيـما قالـه لي:

"منذ زمن أبحثُ عنك بلقيس".

جلسـنا عـلى ربـوة نتأمّـل، أنا...وهـو... ذلـك الـذي مـا كان لغـيري أن يبـصره، بـدا أكـثر انشراحـا مـن الأمـس، كأنمـا اطـمأن لوجـودي بقربـه. ونحـن كذلـك حتـى رأينـا جمعـا مـن النـاس قـرب إحـدى المنـازل، وأصـوات بـكاء ترتفـع كلّـما حاولـتْ الاقـتراب مـن تلـك المـرأة التـي كانـت ترقـد عـلى نعـش يحملـه رجـلان لم يكونـا أقـلّ حزنـا مـن البقيـة. خلفهـا أهلهـا يبكـون بحرقـة ويندبـون. كانـت تغادرهـم للأبـد.

اقتربــتُ أكــثر، وتبعنــي هــو، ذلــك الطّيــف الغريــب. وجوههــم ليســت غريبـة عنّـي أبداً....شـهقة واحـدة طلعـتْ مـن صـدري وأنـا أرى تلـك الجثّـة الهامدة...صُعقت...إنهـا أنا...أنـا...أو بالأحـرى جثّتي...نظـرتُ للطّيـف الـذي كان يقـف خلفـي أومـأ برأسـه إيجابـاً، وبقيـتُ أنـا أنظُـرُني وأحبّتـي خلفـي ينوحـون. مزّقنـي بكاؤهـم وتفجُّعهـم، كنـتُ أصرخ قائلـة لهـم: "أنـا هنـا... أمامكـم" لكـن لا أحـد كان يسـتطيع سـماعي.

جلسـتُ بعـد يـأس عـلى تلـك الرّبـوة دون أن أجـد لي صوتـا أَبكيني...وحـده ذلـك الطّيـف جلـس قـربي مربّتـاً عـلى كتفـي وهـو يقـول " لا تخافي...أنـا هنـا معك...ولـن أفارقـك".

"هَوِيّةُ مُطَلَّقة"

جلستْ بمحاذاته، تراه لكن لا تستطيع أن تقول شيئاً. وحدها نظراتها فعلتْ. قطارُ العمر يمضي، وهما لا زالا يتسلّيان بجمعِ حقيبة السّفر، لم يكن سفراً، كان رحيلاً، وداعاً. ولم تأسف على تأخير رحيلها إلاّ بعد قولِه لها على مرأى ذكرياتهما:

-"أنت طالق".

ثقيلةٌ جداً لو يدري. كانت ترى أنّها تلبسُها أنّى ذهبتْ كأنّها بطاقة تعريف لهويّة جديدة أكسَبَها لها. تضع رداءً يقيها رَمْيَ نِبال الأصابع. وتمشي كأنها تدُوس على هويّتها الحقيقية، هويّتها التي أضاعتْها بزواجها منه. تاركةً بساطة لباسها وراحة فراشها لتلبس على ذوقه ومقاسه أفكاراً وهويةً لا تشبهها، لتنام على فراشٍ حريري لكن مطرّز بشوكِ الأمر والنهيّ عن توسد ذراعها بغيابه وبكائها على وسادتها بحضرته، بل لعلّها فقدتْ أعزّ من ذلك كلّه، قلبها، قلبها الذي ساير فصوله فمشى حافياً بأحلامٍ غسلها البَرَد وبذاكرة تُشحَنُ بطّاريتها مَرّة كل فصل لتعاني بين كل فصل وآخر سكرة النسيان، نسيان أنّ لها قلب، لها كيان، لها كبرياء. و لها أنوثة مغرية لعشرات الرجال. خرجتْ من داره خرقة قديمة بُليت في أقلّ من سنة وما كلّفَ نفسَه عناء الاعتناء بها.

خرجتْ بعدما مسحتْ بطيب نواياها جدران منزله وأرضيّته، ولم تعلم أنها كانتْ تمسحها بكرامتها ليدوسها هو بكلمة فتُختم تلك الكلمة على كل أوراقها، بدءاً من شهادة ميلادها التي لم تكن تعني أكثر من

وفـاة شـخصيتها القديمـة، إلى شـهادة الطّلاق التـي صـارتْ تقـف أمـام شـبّاك استخراجها تسـتعجل الحصـول عليهـا هربـاً مـن تلـك النظـرات التـي ترمقهـا بإشـفاقٍ وأخـرى باشـتهاء.

مُطلّقـة، كلمـة واحـدة تختـزل كل أسـلحة الكـون، كفيلـة بدفـن امـرأة حيّـة، وميـلاد أخـرى لا تشـبهها، امـرأة أكـثر قسـوة، أكـثر حزنـا، وأقـل حبّـا للرجـل.

ها هي بعد يأس، تصفّق له شجاعة الحَسم في أمرهما قائلة:

-" لطالمـا كنـتَ جبانـاً في القـرارات التـي اسـتدعت شـجاعتك، إلا في هـذه، مـن أيـن لـك بتلـك القـوة والقسـوة كي تُكسِّرني وتَكْسرني؟ فأظـلّ أجمَعُنـي وحـدي، أخبـئ لابنـي مـا تبقـى مـن رمـاد الذكريـات".

خرجـتْ مسرعـة للشـارع بعدمـا دفعتْهـا كلّ تلـك الأفـكار للجنـون، ففـي النهايـة هـي تعـرف أنهـا صـارتْ مجنونـة، تناسـتْ الأمـر، وراحـتْ تحمـل حقيبتهـا باتجـاه الحـمّام، علّهـا تغسـل ذاكرتهـا مـن بقايـا عطـره الـذي لم يعـد كذلـك، وتخلـع عنّهـا حزنهـا وتعبهـا وثقلهـا. دخلـتْ الحـمّام فاسـتقبلتْها رائحة حِنّـاء وعطـور نسـائية وبخـور وغاسـول مـن الطـين، كلّهـا امتزجـت لتشـكّل في الأخـير عطـراً لـن تجـده إلا بالحـمّامـات.

سلّمت على صاحبة الحمّام أو جارتها، بعدما رمتْ بحقيبتها كأنها هي الأخرى تعبتْ منها ومن حِملها، فراحتْ تعرّفها على عمّتها التي انشغلت بارتداء لباسها، تفوح منه رائحة بخور ذكّرها بأيامها الخوالي حين كانت تعطّر عباءته صباح العيد، أو زوال كل جمعة. للعطور ذكريات قاتلة، يصعب علينا نسيانها. قالت زهرة صاحبة الحمّام لعمّتها، مُشيرة إلى فايزة:

-" فايزة، ابنة عمّي محمد النّجار"، فمدّت خدّها دون أن تكلّف نفسها عناء الوقوف، ففي النهاية كانت فايزة مجرد امرأة مُثقلة بهمومها، ولا ضير في أن تنحني قليلاً علّها تنفض بعضا من ذلك الحزن على الأرض، فلتفعل الجاذبية ما أرادت بها، سلّمتْ عليها، وما شعرتْ إلا بثقل ينبض أعلى جبهتها، كأنها انحنت لتجمع ما كان متبقّياً من حزنٍ على جبهتها التي صارت تقوم بوظيفة الجاذبية نيابة عن الأرض.

جلستْ فايزة بجوارها تنزع خمارها وتخرِج من حقيبتها ما تبقى من مخلّفات أغراض العروس التي كانت ترفض أن تُبلى كما بُليت، كان الطست الفضّي والمشط المذهّب والحقيبة الداخلية أدوات تنبئ بدخول عروس للحمّام، كل شيء من أشيائها ما كان ليكون إلا لعروس في بداية ألَقِها واعتزازها بحياتها الجديدة، إلا وجهها، لم يكن كذلك، كان موشوما برماد من بقايا نار تلك الكلمة، حتى خالتْها تلتصق بوجهها التصاقا كعلامة تجارية يراها كل من تمرّ بمحاذاته، حتى وإن كان أُميّاً لا يجيد القراءة.

ثم أضافت صاحبة الحمّام قائلة لعمّتها، وعلى مسمعٍ من فايزة:
-"مُطلّقة...مسكينة".
كانت تلك هويّتها الجديدة والتي لا معنى للتعريف عنها بدونها. ولم تجد بُداً من رسم ابتسامةِ بؤسٍ تبلع بها غصّتها التي نخرت حنجرتها حتى باتت لا تقوى على محاورة الناس. لملمت بسرعة أغراضها التي تدخل معها لفوهة الحمّام وعلّقت بقيّة ملابسها بعد أن جمعتها بفوضى داخل حقيبتها على مشجب حديدي، وراحتْ تجرّ قدميها وبحقيبتها تصرخ الأدوات وتحتفل، كأنها كانت تسترجع أول تذكار ليوم استعمالها، حين دخلت فايزة محفوفة بكوكبة من أخواتها و خالاتها وبناتهن، وعماتها وصديقاتها، وهنّ يزغردن ويصلين على النّبي، تتقدّمهن أختها وهي خلفها على خطى مَحبّةٍ تسير، كتلك التي خطت بها أول مرة لمنزله. كانت أغراضها تتطلّع للزغاريد اليوم أيضا ولم تكن تدري أنها زغاريد لحزنها، ولأفول الألوان الزّاهية التي تزيّن حقيبتها الصغيرة.
خرجتْ وما تدري أكانتْ تغسل جسدها ورأسها كما كُنّ يفعلن أم أنها كانت تغسل ذاكرتها فقط من كلّ ما ربطها به وبكل ما صار بغيابه وفيّاً له، يذكّرها به. عادتْ للمنزل أقلّ ذاكرة، محمّلة بالنسيان الذي حشَتْه عمداً بحقيبتها وبقلبها وبذاكرتها، كان منزلها يستقبل خالاتها وجدّتها كما جرت العادة كل جمعة، تمددتْ قرب جدّتها، تستنشق عطرها الذي يبعث في نفسها الطمأنينة ويبحر بها لعوالمها، وحدها من كانت تقف معها دون أن تبحث عن الأسباب أو تستمع لشروحات أحد فهي تعرفها، لطالما قالت لهم بغيابها:

-" لا أخاف على أحدٍ منكم كخوفي على فايزة، لأنها لا تردُّ عن نفسها مظلمة".

اليوم صارت تقول:

-" فايزة لا يشبه اسمها حقيقتها...مسكينة ابنتي..."، ثم تبكيها في صمت بكاءها على ميت فارق الحياة منذ زمن وصار أهله يبكون كلمّا ذكّرتهم المواقف به.

كانتْ تستمع لحديثهن دون شهية، تتظاهر بالنوم كلّما مرّ طيف عروسٍ في كلامهن، وتتدثّر بحزنها وهنّ يذكرن ما عانتْ في حياتها الزوجية في مقارنة بينها وبين حياة عرائس تزوجن في نفس السنة التي تزوجت فيها وحبلن، تلبس قناع النوم، وإلى سمعها تنهال كلمات الشّفقة واللّوم.

مرّت سنة كاملة على طلاقها، حاولتْ خلالها ترميم ذاتها وذاكرتها، وكانت عودتها للعمل مجدداً بمثابة خطوة أثبت بها وجودها، عاد لها نَفس ورغبة في الحياة، خصوصا بعدما تعرّفت على عُمر، فكانت ترى فيه ما لم تره في طليقها، كان نقيضه في كل شيء، ولعلّها لهذا السّبب أعجبتْ به.

وبإحدى الجلسات التي كانا يناقشان فيها قضايا العمل، بادرها بقوله:

-" فايزة، سمعتُ عنك خبراً، لكنّي لم أصدّقه".

ففهمتْ، ولتُجنّبه حرج السؤال، قالت:

-" نعم، صحيح...".

ونهضتْ تحملُ أوراق العمل بعدما أكملتْ باقي الجملة، وهي تتمتم كأنها خشيتْ أن يسمعها أحد:

-" ...أنا مطلّقة".

" مرآة جدتي "

تاقتْ نفسي لروح جدتي، تذكّرتُ حين كنّا نجلس معاً تحت جذع النخلة، أرقُبها منهمكة في صُنع أطباق من السّعف، وهي تحدّثني. ها أنا أعود بعد سنوات، أشرّع نافذةَ الذكريات، أستنشق عَبَق بخورِ الطّيبة يعطّر خزانتها، لمحتُ المرآة المثبتة على الحائط، كثيراً ما كنتُ أستغرب من جدّي الذي ابتكر فكرة تثبيتها بالإسمنت على الحائط كأنه شيء مقدّس، كانت المرآة لا تزال صافيةً كما تركتْها جدّتي، لم تكن تجد لها وقتاً إلا بساعات اللّيل حين تنفض عن جسدها كلّ تعب.

أووه، منذ مدة لم أعد أزور غرفة جدّتي وأتطلّع على طموحي وأحلامي من خلال هذه المرآة، كانت كلّما أبصرَتْني أحدّث نفسي كأني أُمَثِّل في دور السينما ابتسمتْ، وأذكرُ حينها قالتْ:

-"سترين نفسك بكلّ ألقٍ كلّما نظرتِ إليها بحبّ، وبصدق أيضا".

ها أنا أقفُ مجدداً أمامها بعد أن عدتُ من سفرتي الطويلة، نزعتُ خماري الأسود عني وأسدلتُ شعري مُرتّلة ما حفظتُ من شِعري الذي صارت أبياته تصدح في كل مناسبة، عقدتْ الدهشة لساني، تراجعتُ قليلاً، فركتُ عينيّ ثم عاودتُ النّظر بالمرآة ، فلم أرَني، مسحتُ الزّجاج بخماري الذي كان مرمياً على الأرض، مرة وأخرى، لكن دون فائدة، ورحتُ بقلقٍ أشير بأصابعي كمن أصابه مسّ، أدنو وأبتعد عن المرآة دون أن أرى انعكاسَ ظِلّي عليها. لا شيء غير الضّباب ظل يتراقص بمساحتها الخاوية.

أخيرا حاولتُ بعد أن نال مني الإحباط والخوف، مسحتُ وجهي وكتفي

وذراعـي، وكل مـا كان مكشـوفاً مـن جسـدي، بمنديـل جـدّتي، ودنـوت أُخفـي بكلتـا يـديّ وجـهَ طفولتـي، ومـا إن أزحـتُ إحداهـما في ارتبـاك حتـى رأيتُني... نعـم رأيتُنـي مجـدداً كـما كنـتُ قبـل أن أغـادر غرفـة جـدّتي التـي عاشـتْ كل أحـلام طفولتـي ومراهقتـي، ورحـتُ كأنّي أراني لأول مـرة أمشّـط شـعري، وأبتسـم في وجهـي، الـذي قبـل دقائـق فقـط لم يكـن وجهـي.

"وعادتْ بِـخُفَّيْ حَنِين"

لازلـتُ هنـا وحـدي، أروِّض هـذا الحـزن الـذي جـاء هارباً منـك إليّ. لا زلـتُ أنـا الأنثـى العابثـة بأشـيائك، أرتـدي فرحـة طفـل لاسـتقبالِه، أحضنُـه بـكلّ الحـبّ في قلبـي. وبـكلّ المواجـع رُفقـة حزنِـك حروفُـك تـأتي، حاملـةً عَبَـق بخـورٍ لمـزارِ وليّ، وعطـراً مُندسّـاً بأنفاسـك، فأرتـدي في حضرتهِـا كلّ الـوَرَع. تصطفّ على وسادة أفكاري، تُغازلني فأضحك مُنتشية:

-"لم يسـبق أن كتَبـكِ هـو بهـذه الطريقـة، وعـلى هـذا القَـدْر البـاذخِ مـن البـوح".

فتلتَـفُّ حـول نفسـها كأنّمـا بـكلّ حـركاتِ الإعـراب اسـتنْجَدَت فقـط لتُغيّرَ هَيأَتَهـا الأولى. هالـة مـن صمـتٍ لفّـت تلـك الحـروف، حروفـك التـي _بعـد أرَقٍ طويـلٍ_ قـرّرتْ أن تبـوح لي بعيـدا عـن رقابَتـك، بعـرشي، وعـلى مـرأى كلّ حـروفي، بأنّـك لي، أشـعارك لي، كلماتـك لي، حتـى صمتـك هـو لي، لكن...تُكابـر. لم أشـأ أن أسـألها فقـد تعبـتْ هـي الأخـرى مـن تَسـتُّرك بهـا، وهـي لا تقـوى _في حضرتـك_ إلا عـلى طاعتـك، كيـف نسـيتَ أن تتفقّدهـا الليلـة وأنـت الـذي حـين تحـضر البيـت يصبـح أصغـر طفـل سـيّد الجميـع وينـصرف المهتمـون بـه بـدءاً مـن أمـه، لأن شـخصاً لا يَغفَـل لحظـةً في حضـورِ طفـلٍ صغـيرٍ ...جـاء... فكيـف إذا تعلّـق الأمـر بحروفـه؟ كيـف أتـت مُزهـرة بكفّـي عـلى غفلـة منـك، عانقـتُ طويـلا حـروف اسـمك فانتشـت بقيـة الحـروف راقصـة عـلى سريـري الـذي _بحضـورك_ مـا عـاد يشـبه أبـدا شـبح سريـري.

ها هـو الليـل نفسـه الـذي دثّـر أحلامنـا ذات ربيـع، والنجـوم هـي هـي وإن غـيّرتْ منازلهـا ومُقامهـا تبقـى وفيـة للسـماء، وذلـك البـدر عـاود هـلالاً مـرات ومـرات. إلا أنـت... فكيـف يمكـن لليـالي بدونـك أن يتنفـس حبّـاً مـا لم يكـن شـوقاً حارقـاً؟، ومتـى يحـين أوان انجلائـه مـا لم تكـن أنـت جـالي ظلامـه؟.

بعيـدا تهـربُ مُلتفّـاً بغطـاء حروفـك، مراوغـا تدخـل تُغـري بغضبـك عـليّ حـروفي، هـي تـدري، مـذ أفصحـتَ بقليـلٍ مـن بيـانِ رُوحـك قائـلا: "أنـا لا أغضـب إلا ممّـن هـو جديـر بغضبـي، أقسـو مـن منطلـق الحـب، إنهـا قسـوة الغـيرة، غـيرة محرقـة وإخـلاص جـارح".

مـن هنـا اسـتمدتْ حـروفي احتفاءهـا بغضبـك لأنهـا صـارت تُـدرك أنـك تحـبُّ بقسـوة، بـل في قسـوتك عليهـا كل الحـبّ. تُقبّـل حـرفي وحرفتـي وعـلى عجـل تُبعـثر حروفـا هاربـة منـك إليّ ثـم تنسـحب لتبـدأ ليلتـي معهـا، نتصالـح، نتشـاجر ويـضرب بعضنـا بعضـا، وفي الأخـير أتوسّـد حزنـك معانقـة حروفـك، ضاغطـة بحنـوٍ عـلى حـروف اسـمك في ترتيـب بهيـج تمامـا كـما هـو الحـاء والبـاء.

وحـدي وقلبـي نحملنـا معـا جنبـا إلى جنـب بجـوار سـدرة المشـتهى تلـك، قـد نصـل وقـد لا نصـل أبـدا، لكـن يكفينـا شرف المحاولـة وسـاماً للوفـاء. عـلى اسـتحياء جـاءك حافيـا يمـشي حـرفي، خائفـا أن يُنهـر عنـد أول سـؤال، ضائعـاً بـين مرايـا تشـظّت عنـد عتبـة بابـك، ذلـك البـاب الـذي فشـلتُ مـراراً في فتحـه، بـل كان يُعيقنـي حتـى المفتـاح الـذي أغلـق عنـي تلـك الفوهـة وقـد كانـت- في ليـالي الـصَّرْد- المدفـأة التـي بنورهـا كنـتُ أردّ بـردَ اسـتعاراتي وكنايـاتي.

الليلة -وبتحالف مع حروفك- عقدتُ العزم أن تحيا أنوثتي فقط على عرشك، أن تتدثّر فقط بزهوك، أن تكون في النهاية قطرة من جدولك، أو... أبداً لا تكون. كنتُ كبائعة الكبريت أُشعل رؤوس الحروف بكلّ الحركات في كل الحالات الممكنة، أغويها بالرقص، فترقص وترقص، وهو يعانق في حلمي كما حقيقتي بؤس الكلمات. أدور، أرفع فستان القوافي كي لا تكون الحروف أقرب أكثر مني فتشيح بوجهها عني، ذلك الفستان الذي اخترتُه لسهرتنا الليلة " لامٌ" متسربِلٌ بالسّواد، ثم أسفله حواشي منمنمة شكّلتْ جميعها حرف "هاء" [1] في إيقاع أطرب جميع البحور فرقصت هي الأخرى حبّا و غيرة، وبكل المباني والسياقات تتشكل الأوزان، ويخفت نور عود ثقاب الكلمات إلى أن يحرق بانطفائه يدي الممدودة إليك.

عقارب ساعة زمني تراقص نبض قلبي، تتمنى أن تتوقف لبرهة، تطيل وقت الرقص... لكن... عبثا تحاول، فسندريلا الحروف تدرك أن منتصف الليل وشيك، وحروفك الوديعة المطيعة صارت تناظر بعضها، صارت تعاتب بوحها، حاولتُ أن أشغل حيرتها بأكواب من دمعٍ اعتصرتُه بليالي بُعدك -وما أكثره وأكثرها- كنت أحتفظ به في قارورات عطري كشاهد لمحاكمة حبك، أرشّ به فراش لغتي كلما انتصف الجنون، وغاب طيفك في طلاسمك التي كنتَ بين الحين والحين ترسلها كقدر إليّ.

قلتُ بعد أن شغلتني حيرة تلك الحروف وهي تتهامس خائفة عقابك:

-"ليس لهذا الحد ! فشاعري أحنّ عليكم منكم على أنفسكم، إنما غضبُه حب، وقسوته كذلك ". وفي قلبي بهمس:

---

1 لام و هاء: ليلة هادئة

-"كما يفعل دائما معي".

ثم واصلتُ كأنما لأثبت لهم صحة ما أقول:

-"هل بات حرف منكم ذات يوم من المعاني عاريا؟".

نظرت الحروف لبعضها تهز رؤوسها نفيا ثم قالت:

-"لا...أبدا".

ثم أردفتُ:

-" وهل ضاع معنى أحدكم لسهوِ حركةٍ أو لنقصِ شَدّةٍ أو أصبحت بالغلط لامُه مَدّه؟".

فنطقتْ بالنّفي:

-" لا...والله لم يحدث".

حينئذ جثوتُ على ركبتيْ ملاطفةً خدودهم المحمرّة خوفا وخجلا، ممسّدة على رؤوسهم، فسقطت في غفلة ضمّةٌ كانت قد التصقتْ عمداً بحاءٍ هي الأخرى لازمتْ باءً في حياءٍ شديدٍ حتى كادتْ كل واحدة منهما أن تبدو منفصلة، خجلتْ الضمّة من هذا الموقف المحرج وتكوّمت على نفسها بعد أن تزحلقت وانزاحت من مكانها مُستميتةً البقاء بهذا الحرف لتستقرّ أسفله، وخجلتُ أنا لأني كنت سبب إعاقتها تلك.

ما أعجب صبر الحركات ونضالها، أدركتُ حبّها الشديد لهذا الحرف، فخجلتُ مُحاوِلة تجاهل الموقف غير أني فطنت لقطعي المحاورة مع حروفك فأضفتُ كأنّما تثميناً لكلامي قبل قليل:

-"صاحبكم صدقاً يحبكم، وما قسوته عليكم إلاّ لهذا السبب فلا تلوموه، وسرّه إياكم أن تفضحوه".

نطق حرف كان بآخر الترتيب الأبجدي قائلا في تذمّر:

-"لكنـه يؤثـر الكتـمان وقـد أرهقنـا وآلمنـا أن نـرى حروفـكِ مسـتنجدةً باكيـةً كلّ ليلـة عـلى طاولـة حلـم".

-"ويلي...حتـى الحـروف صـارتْ تـدري... "، أسررتُهـا في نفـسي، وجـاء مكابـراً مداريـاً لحـزني حَـرفي، ناطقـاً في حـضرتي عنـيّ، مناقضـا قـولي، فقـالَ، وحرفُـك مثلـك في عنـادٍ قال...وعلـتِ الأصـوات...

جلسـتُ غـير بعيـدة عنك...عفـوا عنها...عـن حروفـك التـي فجـأة صـارت تشـبهك، وقـد كانـت قبـل قليـل تشـكي جـبروتَ صمتك...عجيـب !...حتـى في بعدهـا عنك...حتـى في خلافهـا معك...تـذوذ عنـك، عكـس حـروفي رأيتُهـا تنكـسر، تنهـزم، لا زرقـاء علامـةٍ صـارت تُبـصر ألغـازك فقـد فقـأتُ عـينَ سـكونها وأهملـتُ نقطـة قافِهـا، ولا خُفـا حُنَـيْن عـدتُ بهـما مـن عالمـك بعدمـا راودتنـي نفـسي لفتـح حائهـا، سرابٌ في سرابٍ جمَعَتْـه جعبتـي، أرويـه لـكل مـن خذلهـم الحـرف وأسـقطهم في هاويـة غوايتـه.

كنـتَ قـد حـضرتَ مسرعـاً باحثـاً عـن حروفـك، مخطـوف الملامـح، كأنمـا خشـيت بوحهـا. نهضـتُ مـن مـكاني بسـعادة بائسـة، حيّيتُـك وأنـا أشـير لـك بالجلـوس عـلى مائـدة منتصـف الليـل التـي أعددتُهـا خصيصـا لحروفـك، بـل حروقـك، قلـتَ مسـتعجلا دون أن تكلّـف نفسـك عنـاء الالتفـات إلـــــيّ:

-" في وقت آخر...".

ورحـتَ تجمـع حروفـك داخـل قلبـك وحـروفي لفراقهـا تنتفـض دفعـةً واحـدةً وتسـقط مصروعـة فـلا ألمُّهـا، ولا يهـزّني اضطرابهـا، فكثـيرا مـا خدعتنـي تلـك الحـروف التـي كنـتُ أحسَـبُها قبـل اليـوم حـروفي. كانـت فقـط نُسـخا مـن

حروفـك، هـي الأخـرى بإشـارة منـك صـارت تلتـمُّ وتتشـظى.

حرفـان ظـلاّ مكانهـما دون حـراك، قطبـتَ حاجبيـك تجاههـما ورحـت تقـرأ بتعلثـم كأنهـما قـد خرجـا عـن نظـام قبيلـة أبجديتـك فصـارا صعلوكـين، أجـل إنهـما: "الحـاء والبـاء" ترتعـد فرائسـهما خوفـا، ومـا كان يدريـان أنهـما مـا عـادا بذلـك المعنـى الأول فقـد قَلَبَـتْ تلـك الضمـة الحمقـاء -حـين انزلقـتْ مـن ظهـر الحـاء لتسـتقر أسـفله- كلّ المعنـى الـذي أردتُ أنـا والـذي خِفـتَ أنـتَ أن يكونـاه بعـد أن صـارت حاؤهـا جِيـما ...أجل...جُـب... جبٌّ..هـو حبـك. عـاد لوجهـك نـوره بعـد أن اختـلّ المعنـى وتـاه السـياق، وتفككـت المبـاني، فـلا النـصّ صـار نصّـاً، ولا أنـت كنـتَ مُؤَلِفـه، وحدي...أنـا القارئـة المُفترَضـة التـي -في غفلـة مـن القـراءات المتعـددة- رُحـتُ بنيويـةَ المنطـق، تفكيكيـة الاسـتراتيجية، أعيـد قـراءة حروفـك بمنـأى عنـك، عـلى طريقتـي، فتمـوّه نصُّـك وضـاع بسـبب أهـوائي وإسـقاطاتي الخاصـة جـلّ المعنـى الـذي أردتَـه أنـت. وعـادتْ مـرة أخـرى تلـك الكلـمات إلى صاحبهـا بعـودة عوالمـه.

فعـذرا أيهـا الشـاعر إن سـحبتُ في غفلـة منـك بطاقـة هويتـك ورحـتُ أعـرض عـلى المـلأ أشـعارك بهويّـة مزيّفـة ومناهـج مختلفـة، هويـة لا تشـبهها في شيء، هويّـة هاويـة قـراءة ليـس إلا.

كنـتَ ترقـب مـا خططـتُ عـلى تلـك الورقـة بشـهادة الدّمـع، وقـد ظننتُـك عـلى عجـل رحلـت بعـد أن لمـتَ حروفـك داخلـك. أمسـكتَ يـدي بعـد أن نزعـتَ عنهـا القلـم. أردتُ أن أقـول شـيئا لكنـك قطعتنـي وأنـت تضـع إصبعيـك عـلى فمـي تبيـح لهـما لثمـي. وأنـا لا أزال أقـف عـلى دهشـتي لقدومـك، قلـتَ بعـد أن أضـاءت النجـوم حولنـا، نجـومٌ تشـكّلت حروفـاً

مضيئـة مُضـاءة مُعلنـةً بدايـة منتصـف الليـل:

-"قليلا من الصّمت يا جاهلة...

فأجمل من كلّ هذا الحديث...

حديث يديك على الطاولة" [2].

2 نزار قباني

" تهمة "

على عجل جلستُ بجانبه وخلفنا كانت تجلس على نار امرأة ترتدي القلق بشكل فوضوي.

-" إلى أين؟".

سألني سائق التاكسي. وقبل أن أخبره وجهتي نطقت من خلفي:

-"رجاء بُنَيّ خذني لقسم الدرك أريد أن أبلّغ عن غياب ابني...". وخنقت العبرات باقي الرجاء.

نظر إليّ أومأتُ. فَهِم و انطلقنا. كانت من تحت النقاب تشتكي ظلم الزمن، وبشفتين مرتجفتين قالت:

-" أين أنت يا روح أمك؟".

سألها سائق التاكسي:" منذ متى اختفى؟.

وكأنها كانت بانتظار السؤال:

-"سافر صبيحة الأمس مع صديقه الذي يمتهن الحلاقة بمحلّه. في المساء انقطع الاتصال فخمنتُ أن بطارية هاتفه نفذت. اتصلت بصديقه ليقول إنه كان يودّ أن يسأل عن سبب غيابه عن العمل".

سكتت تمسح دمع أُمّ أحرقها الخوف على كبدها وبكى قلبي لحالها. أخرجتْ صورته مدّتها للسائق ثم لي، تتوسم في أحدنا أن يكون لمح شبحه. كنت أرى السائق يحاول تهدئتها قائلا إن سحر وهران يجعل المرء ينسى حتى نفسه وكانت هي بالدمع تسرد احتمالات مخيفة توجّستها، أفضعها أن يبيعوا أعضاءه ثم يرمونه جثة لكلاب البشر. كنت قد بدأت

أقلـق مثلهـا وأدعـو اللـه أن يـرد لهـا ابنهـا سـالما. بينـما بـدا السـائق بـلا ملامـح كأن الأمـر عـادي جـدا.

حين نزلتْ قلتُ للسائق:

-" المسكينة... ربي يرجع لها ابنها سالما معافى".

فرد السائق بما قتل به دفعة واحدة تفكيري ومشاعري:

-"تكـذب... مجـرد هجّالـة[3] طامعـة في الحصـول عـلى رقـم أحـد الضبـاط وموعـد... ...ليـس إلا...".

---

[2]مطلقة

"اعتباطية"

تـرددت كثـيرا قبـل أن استشـير صديقـاتي، فأنـا لا أعلـم بعـد إن كُـنّ سـيقبلن بي وأنـا حديثـة العهـد بهـن. كنـت أجلـس كل مسـاء بالقـرب مـن الجسـر الذي كـن يرتدنـه ذهابـا وإيابـا في حركـة قلقـة أشـبه مـا تكـون بامـرأة تعـاني آلام المخـاض. لم أقـترب منهـن. مـاذا سـأقول ؟ ربمـا لسـت جاهـزة بعـد لأصارحهـن بنيتـي في مصاحبتهـم.

مـرّ وقـت طويـل وأنـا أقـف بذلـك المـكان أَراهُـن يَغِبن داخـل نفـق طويـل لانهايـة لـه، ولا يعـدن. كانـت فرحتـي تكـبر كلـما اقتربـتُ دون أن ألقـى معارضـة أو طـرد، فرُحـت يومـا بعـد يـوم أحـاول أن أحـدّث أقـرب واحـدة تمـر بجانبـي. لم تلتفـت لي ولا واحـدة غـير أني اسـتطعت أن أتنصـت عـلى مـا دار بـين صديقتـين مـن حديـث. كانـت الأولى قالـت ووجههـا يعكـس شرارة غضـب امتزجـت بقلـق رافعـة حاجـب عينهـا اليمنـى:

-"كنـت تمنيـت أن أكـون مـن ضمـن صديقـاتي اللـواتي اختارتهـن، رغـم أنهـا أوشـكت عـلى اختيـار ي، غـير أن الغبيـة التـي كانـت ورائي زلـت قدمهـا فسـقطت أمامهـا محتلـة مـكاني ووقـع عليهـا الاختيـار رغـم أنهـا أقـل مني شـأنا وقيمـة".

ردت صديقتها ساخرة في ابتسام:

-"لا عليـك، إن لم يتـم اختيـارك الآن فأكيـد سـتختارك لاحقـا. بالنهايـة هـي تحتاجنـا جميعـا، فقـط يبقـى لـكل منـا أوان ومـكان".

لم أفهـم شـيئا مـما دار بينهـما. نزعـت قبعتـي أمـد أذني ويـدي اليـسرى تحوطهـا كمكـبر صـوت... لم أسـمع شـيئا... ولم أنتبـه إلا ويـد إحداهـما تقبـض عـلى أذني بشـدة:

-"من أنت؟ وماذا تفعلين؟".

ارتبكـت. لم أعـرف مـاذا أقـول، رحـتُ أحـاول شـغلهما بحـكّ موضـع الألم حتـى سـمعت صاحبتهـا تقول:

-"لعلها منافستنا الجديدة!".

وأطلقـت ضحكـة أشـعلتني غيظـا و وتّرتنـي. كـدت أقـول: "عـن أي منافسـة تتحدثـين؟". ردت الأخـرى بعـد أن حـررت يـدي:

-"تتظاهـر أنهـا لا تعـرف. أكيـد هـي مـن الوافـدات الجـدد. فصديقتنـا كـما تعلمـين مهووسـة بالمطالعـة كثـيرا ومدمنـة سـهر".

صمتت قليلا ثم أضافت متجاهلة وجودي:

- "تبـا... ليلـة أمـس لم تنـم، باتـت تـردد كـما في صـلاة اسـما غريبا "دوسوسـير.. دوسيوسـير.."، رجوتهـا أن تبتعـد عـن نافـذة حـروفي وإلا تطلبنـي وتختـارني لأكـون معهـا، أمـا وتزعجنـي فقـط دون أن تختـارني...؟"

وأطلقـت تنهيـدة ضجـر عميقـة لتواصـل وصديقتهـا الطريـق نحـو الجـسر. أفقـت عـلى دهشـتي مـن كلامهـما، أحفـظ اسـم "دوسوسـير" ليطـرق بـرأسي سـؤال ملـح نفضَتـه عـلى مسـمعي قبـل رحيلها:"مـن أنـت؟".

صحيح. من أنا؟ متى ولدت؟ وما الذي أفعله داخل هذا العالم الضيق الذي تتكاثر رائداته يوما بعد يوم. اسم دوسوسير كان حرك كياني كأن شيئا ما به يربطني. هل أنتمي إليه؟ هل يشبهني؟ هل يعنيني أمره؟. وأنا غارقة بالبحث عن هويتي أسأل نفسي دون أن أجد ردا حتى سمعت صراخا كأنه قادم من بعيد:

-"وجدتها..نعم.. هي هذه...".

وراحت تكتبني بدفترها بعد أن تدحرجت تلقائيا عابرة ذلك الجسر الذي كان يخفي الكثيرات قبلي وما عرفت منتهاه آنذاك. لأصطف أمام سطر من الكلمات التي اختارتها قبل أن يحين دوري، فرأيت تلك التي كانت سبقتني بلحظات خلتها هناك يوما كاملا. آلمني مصيرها فقد كانت سعيدة جدا لأنها ستخرج للحياة. كانت مبتورة الحروف وقد وضعت بجانبها ممحاة علق بها بعض أشلائها من حركات ونقاط. ورأيت صديقتي الجديدة مكبّلة بخيوط زرقاء بشكل عشوائي بعدما شطبتها. وأدركتُ أنني كنت الكلمة الضائعة التي ظلت تفتش عنها والتي حفظَتها ليلة أمس لأجل هذا الامتحان. وما فاجأني حقا أن المفردة التي سمعتها أمس كانت حاضرة تسبقني بكلمة ما كان لي أن آخذ معنى بينهما دون هذا الترتيب. كنت مجرد كلمة "اعتباطية" أنا.. نعم.. كنت "اعتباطية" يسبقني "دوسوسير" وتلحق بي "علامة".

"إشعار مفاجئ"

-"شيء سيبقى بيننا".

قالت تغلق ديوان فاروق جويدة وقد دخلت والدتها حاملة صينية الشاي بنكهة النعناع. خجلت منها فراحت تحمل عنها الصينية، تقول في سرها؛ هذا هو العصيان الصامت. كيف أتمدد على سرير الراحة بينما أمي تخدمني! .

جلست أمها بجوارها تقلّب إبريق الشاي محافظة على طقوسه، كانت تريد أن تقول كلاما عنه يجعلها تقبل الزواج به. لكن خديجة تعرفه وتعرف كل تفاصيل حياته. كيف لا وخالتها لا تفوّت جلسة دون أن تحكي عن ابنها الوحيد. تظاهرت فاطنة بالانشغال عن حديثها الذي حفظته وهي تفتح كتابا دون أن تهتم لمحتواه.

-"ابنتي فكري في مستقبلك، لن أعيش لك كل العمر..أريد الاطمئنان عليك قبل أن أموت".

-"بعد عمر طويل أمي لماذا تنبشين سيرة الموت؟".

-"عليّ رجل يا ابنتي... رجل ولا عيب فيه".

قالت أمها وهي تثبت نظرها في الكأس التي كانت تفرغ فيها الشاي بينما كانت فاطنة تحكي في سرها عن مراد. تمنت لو استطاعت إخبار أمها بذلك. ستقول لها كيف عرفته؟ أين قابلته؟ وأسئلة كثيرة لا إجابات لديها عنها. أزاحت الحاسوب تاركة دردشتهما مفتوحة على موقع التواصل الاجتماعي بانتظار إشارته الخضراء. أمها لا تزال تذكر محاسن

علـيّ وفاطنــة لا تــزال تســتحضر دردشــة مــراد... أخــيرا أضــاءت إشــارته الخـضراء إيذانـا بدخولـه. اعتدلـت لكنهـا خجلـت أن تكتـب لـه شـيئا بحضـور أمهـا رغـم أن أمهـا لـن تفقـه شـيئا مـما سـترقن عـلى لوحـة المفاتيـح. وكثـيرا مـا تدعـو لهـا ظنـا أنهـا تكتـب بحثـا أو تطالـع شـيئا.

اكتفت أمها بعد يأس بأن حملت كأسها تقيس جرعة خيبتها قائلة:

-" الله يعينك على دراستك حبيبتي".

إشـعار جديـد بوجـود منشـور عـلى جـداره. وضعـت نظارتهـا تسـتقبل مـا نـشر. فجـأة قفـزت كقطـة مذعـورة لا تعـرف مـا تقـول. مكمّمـة فمهـا بكلتـا يديهـا ووجههـا لأمهـا:

-"أمي...م..را..د تـــ..زوّ..ج ..؟ !".

"أحجية الرّبيع"

كل شيء أحسه يتكسر أمامي. أسمع صداه... لكنه لا يسمع شيئا من وجع ذاكرتي... يكفيه اختطاف وردة... وردة واحدة بورقتين وبرعم صغير. وأنا المسافرة دوما بدونك... الحالمة بطيفك وظلّك... لا زلت سرّا أبحث عنك.

أشبه كل جماد إلا نفسي، وأتوق إلى كل شيء تركتَ عطرا منك فيه. ومن حافلة أنزل لحافلة بالهموم والأحزان حافلة. كيف لامرأة أن تحب بهذا القدر من الحزن وأن تمتلئ بكل الفراغات التي يتركها رجل.

فتحتُ النافذة، بقايا صور على أرضية الشارع ومطر يتكسر لأنين ذاكرتي، وعمود كهربائي يحتفي نوره بسرد ذكريات قمر... وكنتَ أنت المتفرج الوحيد غير أنك غادرت دون أن تصفق حتى، أو تنتظر نهاية العرض.

على الجهة المقابلة كانت تجلس جدتي بضفاف دجلة، تستظل بشجرة كرز تمشط شعرها الأحمر. خلفها حفيدها نزار... كانت تغني وهو يبكي وأنا أرى ولا أفعل شيئا. وغير بعيد شاب يحترق وحوله المئات يصفقون احتفالا بقدوم الربيع... هربت ببصري وأنا أضم قلبي الصغير إليّ.

كان المرمي أمامي رث الثياب... فاقد الوعي. لحيته المضمخة بالتاريخ، وجهه الحاد النظرة صار مبرقعا بالكاد تعرفت عليه،إنه الشخص الذي كان يردد مقولة ابن خلدون في المحافل الدولية "اتفق العرب ألا يتفقوا"... عدتُ مجددا لجدتي أحاول أن أقبل جبينها. وجدتُ حفيدها مرميا خلفها بلا حراك.

أرعبتنـي الصـور التـي اكتسـت شـعار الربيـع، لكـن أنّى لهـذه الألـوان أن تلـد الربيـع؟!. أطفـأت التلفـاز ولم تفارقنـي الصـور. مثلهـم كان غـادرني هـو حامـلا بعـض ذاكرتهـم. حملـت حـزني بانتظـار عودتـه وأنـا أقطـع عهـدا لنفـسي بـألا أقـرب التلفـاز وبـأن أظـل وفيـة للصـبر والقـدر وبربيـع حقيقـي بـكل الألـوان فيـه إلا اللـون الأحمـر...

"ذكريات "

لا أزال من ذلك الجيل الذي يخجل وهو بالحافلة أن يُخرج من محفظته قطعة حلوة لأنه لا يملك قطعة أخرى يعطيها لمن يجاوره. لا أزال رغم كبري أجلس قرب جدتي كلما فتحت صندوقها العجيب طمعا بالظفر ببقايا زجاجة عطر تريد الاستغناء عنها. لا أزال أحزن وأدخل بدوامة توحّد كلما فقدت صديقة كنت أحبها ولسبب تافه لم أجدها. لا زلت أنزع عني خماري وأقف تحت السماء كلما أمطرت لأغسل شعري ورأسي من كل الآلام كما كانت تقول جدتي، وأضع إناءً كبيراً بفناء المنزل حتى يتجمع أكبر عدد ممكن من قطرات المطر ثم أشربها متمتمة بأدعية وأمنيات كلها بريئة وبسيطة. أذكر كم مرة ضحكت صديقتي التي شاركتني بغرفة الإقامة الجامعية على خرافاتي كما نعتتها آنذاك، وكم كنت أنهرها وأغضب منها لساعات. ثم نعود كأن شيئا لم يكن.

الشيء الوحيد الذي تغير في نظرتي للأشياء والعالم هو علاقتي التي أقيمها مع السفر. كنت سابقا أفرح كثيرا كلما أبلغتنا أمي بقرار والدي أن نسافر لبلاد جدي وأخوالي، وكان والدي يستنفذ صبرنا لأجل الموعد. يغيره بين ليلة وضحاها ونظل وأمي نطل على حقائبنا التي حوت أجمل ثيابنا.

كنت أنام على وقع فرحة إطلالتي عبر النافذة، وسعادتي لتجاوز سيارة أبي سيارات أخرى، فنصفق أنا وأختي ونشدو، وحدها أمي كانت تغضب وتنظر إلينا نظرة حادة فنصمت.

كبرت وتعقدت علاقتي مع السفر، مع الحافلات والسيارات. صرت أمسك على قلبي خشية أن يفزع لحادث ما. حادث صار احتماله واردا وممكنا في أية لحظة.

صرت أجلس خلف السائق مباشرة فقط لأراقب عداد السرعة. شيء يضيق بصدري كلما ركبت حافلة. أحفظ بدقة أدعية السفر.أحاول جاهدة ألا يقع بصري على تجاوز حافلتنا لسيارة أو شاحنة أمامنا. تذكرت كل هذه التفاصيل بينما أمي كانت تضع وشاحا أبيضا على يدي تلف به كفي المخضبة بالحناء ليلة فرحي. وأنا لا أستوعب بعد أني أودعهم جميعا لبيت رجل لا أعرف عنه شيئا سوى أنه سيكون زوجي باقي أيام العمر.

"رحلة حياة"

نـأتي إلى هـذه الدنيـا بأحـلام كبـيرة، نسـير نحوهـا بخطـى تحمـل كل الفـرح. قـد نتعـثر، نسـقط، يعـترض طريقنـا الوهـن، لكـن نعـود مـن جديـد بعزيمـة أكـبر، وأحـلام أجمـل. نتخـلى في كل مـرة عـن شيء جميـل فينـا، نهـدم قاعـدة أو نُسـقط جـدارا كان في البـدء يحمينـا. قـد نغـرد خـارج السـرب فقـط لأننـا رأينـاه حـلا أقـرب لوصولنـا الهـدف. نتجاهـل مبـدءا أو نغـيّر آخـر. تتكسـر فينـا أشـياء جميلـة، ترميمهـا يسـتغرق وقتـا، وقـد يسـتغرق عمـرا، لذلـك... نتنـازل عنهـا ونمـشي حافيـن عـلى مـا تبقـى مـن انكسـارها رغـم أنـه يدمينـا. تتضـاءل فينـا مشـاعر صادقـة بفعـل الخيبـات، فنـصر عـلى المضي. تتكسـر أشـياء وأشـياء وتتغـير. لكـن المحـزن في كل هـذا أن تتغـير ...إلى الأسـوأ...طيبة قلوبنا...لأنهـا إن قسـت فلـن يصبـح لحلمهـا بعـد ذلـك أيّ معنـى، حتـى وإن تحقـق الحلـم.

هـذا مـا كانـت منـال مؤمنـة بـه قبـل أن تـراه ذات صدفـة بالحافلـة، لتغـير حروفهـا، تغـير مسـارها، ويكـون هـو، وحـده قدرهـا. تقتلهـا منشـوراته التـي تتنفـس حزنهـا، فترحـل معهـا بعيـدا جـدا، حيـث لا أحـد سـيقول لهـا: " كفـي عـن الحلـم... ليـس لـك".

نطق أحد المسافرين: "وصلنا".

هـا قـد انتهـت مسـافة المئـة كيلومـتر. أشـجار المدينـة تسـابق وجـع احتـمال فراقهـما في أي لحظـة تشـيع حبهـما، التفتـتْ كطفـل يتيـم تعانـق وداعـه.

كان يعبث بهاتفه، لم تكن تبحث عن شيء محدد. أخفت عينيها عنه كي لا تراه يودعها. وهربت مرة أخرى لقدرها. قدرها الذي ما كان سوى طريق طويلة، قطعها جبل عنتر وهو يطل على المدينة في شموخ.

نظرت إليه تنتظر منه موعدا، أو وعدا، هو نفسه، صديق الصدفة التي جمعتهما ذات تعليق بمنشور أحد الأصدقاء، منذ ذلك اليوم بدأت حكايتهما على مرأى ذلك الفضاء الأزرق. كان منشغلا عنها بجمع محفظته السوداء قبل أن ينزل، تاركا حروفها ضائعة في ذلك الفضاء الذي ملأه نزول الركاب بكسل، بعد يوم حافل بالأحداث.

لا تعرف كم بقيت من الوقت تراقبه وهو يذهب، لم يلتفت، لم ترتبك خطواته. كان القابض بأدب ينبهها:

-"أختي، أتحتاجين شيئا أو تنتظرين أحدا؟".

أومأت برأسها نافية وبهدوء نزلت. كان لابد لها أن تعرف نهاية هذه الطريق. رجل متزوج وله أسرة أخرى حتى وإن تشكّى من عدم راحته بها. ما كانت لتعني له أكثر من رحلة... رحلة حرف... رحلة بحث عن الذات التي نفقدها أحيانا بسبب تهور فنحاول استرجاعها بعد فوات الأوان. ولا يغفر الحب تلك الخطيئة مهما كان بريئا. حب للحروف التي تجعلنا لا نفرق بين رجل من ورق أحببناه داخل رواياتنا التي نسجناها وحب يمشي كما البقية على الأرض.

حيّت حارس المحطة وهي تدخل بوابتها كالعادة، كان خلفها قدر آخر ينتظرها. كان الواقع بكل قساوته ومرارته ينتظر عودتها إليه. بالنهاية هي حياتنا كلها أقدار...

"رحيمة"

-"رحيمة..الغذاء جاهز...لا تتأخري".

طوت بعناية ملابس صغيرة جدا وهي تصففها بالخزانة، حالمة بطفلة جميلة تشبه والدها. دخلت أختها الصغرى تناديها للعذاء. لم تغير من جلستها، قالت مبتسمة دون أن يحيد نظرها عن فستان وردي صغير كان مبسوطا على ساقها اليسرى:

-"لا تنتظروني... لست جائعة".

وراحت تدندن بابتسامة بريئة كأنها ترى طفلها يبادلها الابتسام. عادت تستند على وسادة السرير الذي غطته فوضى ملابس رضيع انتقت ألوانه للجنسين، هي لا تعلم بعد إن كانت ستضعه ذكرا أم أنثى. رفعت سروالا أزرقا صغيرا جدا وضعته على بطنها كأنها تريد أن تقيس ساقي الرضيع داخله. هالها تذكّر حقيقتها، دمع قلبها وهي تسترجع تفاصيل العملية؛ دخولها غرفة العمليات مشيا على الآلام بوجه شاحب وهي تعلم أنها عندما تستفيق ستجد مصلا معلقا أعلى رأسها ودوارا وألما رهيبا.

آلمتها رؤية فتاة تبدو كأنها في الرابعة عشر من عمرها تتبع ممرضة كانت تفتح مكتبا، أشارت إليها فلحقت بها. كانت تستطيع تخيل ارتجاف الملف الطبي بين أناملها.

على الطرف الآخر بقاعة الانتظار كانت تجلس حياة، بقلق تعبث بشاشة هاتفها دون أن تعي حقا. قلبها ما كان معلقا بغير أختها رحيمة التي تركت لها آخر صورة وهي تودعها حاملة حقيبتها البيضاء التي

تقاطعت خطوطها الرمادية. رمقتها بابتسامة شاحبة وهي تلوح مودعة، وبابتسامة مرتجفة ردت حياة وهي تقف من مقعدها مواسية. كانت تتبعها بعينيها إلى أن غابت خلف باب خشبي بلون رمادي كئيب. وغرقت بعينيها الصور.

الساعة تشير إلى الثلاثين دقيقة بعد منتصف النهار حين علمت حياة من المراقِبة الجالسة على الباب أن الطبيب باشر بالعملية، إنتابها دوار وصداع رهيب، حاولت الوقوف لكن قدميها تراجعت. استندت على جدار صغير يغطي مساحة خضراء بباحة المشفى وهي تتفقد في قلق شديد ساعة يدها. كل تلك التفاصيل ذبحت أختها كما ذبحتها هي بعد أن استفاقت لا تعي من الدنيا شيئا سوى أنها بعثت من جديد.لوهلة نسيت رحيمة أنها الآن لن تنجب مجددا لا ذكرا ولا أنثى وأنها صارت رحيمة بلا رحم...

"حكايتي والحافلة"

منذ سنوات أتنقل عبر الحافلة، لا أهتم كثيرا للركاب ولا إلى السائق، دوما تأخذ النافذة المساحة الأكبر من اهتماماتي فأختار بعناية مقعدا مجاورا لها. أغوص بأعماق السحب التي تركض بسرعة الرياح شتاء، وبزرقة السماء الصافية صيفا، دوما هناك رغبة جميلة تجتاحني كلما تخيلتُني أركض بتلك المساحات التي تطويها الحافلة على عجل، فلا تمنحني فرصة اقتناص صور لي بها.

اليوم... وبعد عشر سنوات سفر، أحسُّني كبرت كثيرا... تعبت كثيرا... ترهلت صور النوافذ بمخيلتي، فلا أنا عدتُ أنتبه لوجود جبال تشمخ بطولها، ولا همّتني عصافير محلقة أسرابا في لوحة بديعة. ولا هو مكاني بالقرب من النافذة صار يغريني.

تموت فينا الرغبات حين نفقد السبب الذي كنا نناضل من أجله، وتقلّ حاجتنا للمرح. قليل من الابتسامة المتعبة تكفي ليوم عمل مضن. ما عدتُ أختار بعناية مساحيق التجميل أو أقف لساعات طوال أمام المرآة أزين ربطة خماري البهي الألوان. الآن صار السواد يكتسحه فأرميه بعشوائية وألقي نظرة سريعة بالمرآة قبل خروجي. غيرتُ جلّ عاداتي إلا تلك النظرة السريعة بالمرآة أحس من خلالها أني لا أزال أحتفظ ببعض من طقوس الأنثى. كنت أسافر سابقا على أمل لقاء جميل يجمعني بأقدار العمر التي تستحق. كنت وأنا أجلس بالحافلة أتفقّد وجوه الركاب من حولي... أبتسم لهم... أقاسمهم ما أحضرت معي من زاد مهما

كان قليـلا... أثرثـر، أحـكي لهـم عنـي وأسـمع قصصهـم، أواسـيهم بأحزانهـا وأشـاركهم فرحتهـا. كان قلبـي يخفـق كالطائـر كلـما اقتربـتُ مـن الوصـول، لأحضـن عائلتـي، أنـزع عنـي ثـوب الإرهـاق وألبـس عـلى مقـاس فرحهـم، فتغـدو الحيـاة بعينـي أجمـل وأحـلى. وإذ أفرغـت شـحنات شـوقي أحملُنـي لمنـزل أحـد الأقـارب، أجلـس عـلى فنجـان قهـوة وبسـكويت وأحاديـث لا تنتهـي إلا بـأذان المغـرب.

يـاااه... كـم تغـير الزمـن... غـاب الأصدقـاء في زحـام العمـر... غيرتهـم الظـروف... وعرّتهـم المواقـف... حتـى أولئـك الذيـن راهنـتُ لأجلهـم وتوقعـت الجفـاء مـن الجميـع إلا منهـم... خذلـوني... كنـتُ أبصـم بنبضـات قلبـي أنهـم لـن يعوضـوا أبـدا، وأن الزمـن سـيتغير ولا يتغـيرون، لكـن، بقـي الزمـن وفيـاً... ومـا وفـوا... بقيـتْ جلسـات القهـوة وفيـة عـلى طاولتنـا المسـائية، لكنهـا غـدت باهتـة، حتـى ذلـك الإصّيـص الـذي كان يذبـل شـتاء ويزهـر ربيعـا، ظـل شـاهدا، ولم يظـل الأقربـون كذلـك. شـوهتهم المصالـح، أغوتهـم الدنيـا التـي ضحكـت... لكـن... بدوننـا. صـاروا قادريـن عـلى الابتسـامة والضحـك عاليـا حتـى دون أن أشـاركهم ذلـك كـما كنـا نفعـل.

صـاروا يتبادلـون التهـاني بعيـدا عـن عناقنـا... آه... مـا عـادت تهمنـي الآن نوافـذ الحافـلات، فمثلهـم صـارت تنغلـق عـلى هـواء ملـوث. مـا عـدتُ أنظـر لسـاعة يـدي وقلبـي يسـارع الكيلومـترات ليصـل، تشـابهت كل الأشـياء، كل الأوقـات، كل الأماكـن، كل الانكسـارات بداخلنـا صـارت كأنهـا شريـط مسـجل يعـاد برتابـة كل يـوم. مـا عـاد يهمنـي أمـر الـركاب ولا حزنهـم أو سـعادتهم تثـير مشـاعري... بالأحـرى... مـا عـادت لمشـاعري مشـاعر... أحسّـها صـارت

ركاما مـن الذكريـات فقـط... صرتُ كثـيرا مـا أغتـاظ لرؤيـة أشـخاص يضحكون فيلفتـون انتبـاه المسـافرين. وفي سري أتسـاءل : أيوجـد مـا يسـتحق كل هـذا الضحـك ؟.

! غريبـة عنـي... ولا أشـبهني... ولا أعنيني في شيء سـوى أن الانكسـارت المتتالية قتلـت بـراءة إحسـاسي وحولتنـي مجـرد امـرأة تركض بهوامـش العمر.

تذكار تلك المحبة

تشتعل كفتيلة شمع داخل مزار، لا يمكن أن يكون إلا بزاوية كالتي زارَتْها وإياه، فتتحوّل بين يديه مِحرقة بخور مزينة بألوان تِبَرْكنْتْ [4].

بعيدا عنه قليلا، تراه يرتسم، هو، عرجونا. فتنبهر، هي، بما صنع منها الشّوق والحنين.

تغار منها، تلك الخرافية، كما قرأت عنها في حكايتِه عنها. ها هي تراها. تبعتْها مقتفية أثرها. خطّتْ بنعلِها سبيلاً علّها تقودها إليها.

رَقَبها هو متتبّعا خطوها. محا برياحه العطرة أثرها إلى بتولِه. بكى الرّمل الذي ذات سفر دثّرهما. كان شمّها، وهي تُوشّم بنارها على صدره كلمات جسدها؛ جسدها الذي في البدء كان لها، ها هو يفلت منها إليه.

همستْ له: "استعرتُ لك من النّجم نوراً ومن الشّمس مرقما. استدرْ لأرسمَ وجهك، كما لم تعرفه بتولك." فانهمرتْ التذكارات بينهما عاصفة ابتلعها صمت توات.

سمعتْ صدى لصوته: "هنالك، في موطنك، شمس تعصر لك من عينيها الباكرتين ندى الحنين".

[4] تبركنت: قصرمن قصور أدرار العتيقة

في الجنـان، رأتْ النخلـةَ ضحكـتْ لـه مـلء سـعفها. لما جاوزهـا فاقتربـتْ هـي منهـا سـمعتْ اليمامـة تقـول عـلى أحـد أخواصهـا: " هـو، القـادم بملـح البحـر. هـي الحاملـة، خلفـه، عبـق الشّـيح". ثـم طـارتْ.

هنـاك، في تمنطيـط، أبـصرتْ ظِـلاً لروحهـا عـبَر تـوات مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا. عطـشى كانـتْ. جفّف ماء سـاقية الفقّارة فيها عرقها، راود وجعها، أشـعل ولَهها. وفي متاهـة بسـتانها ضاعـتْ بحثـاً عنـه. كان بينهـا وبـين النخلـة؛ هـي النخلـة الأنثـى؟ إنهـا آتيـة مـن أرض لا تعـرف الفـرق بـين ذكـر النخـل وبـين أنثـاه.

تمـرة تنهـود تلـك مـن تلـك النخلـة؟ كانـت تـدسّ لهـما سـكرها. بفمهـا تحـول بـين شـفتيه عسـلاً مـن نحـل الجبـل. تأملـتْ:" يـا روحـي، مـا أقسـى التـذكار! ومـا ألـذ الاشـتهاء، يـا وجعـي!".

أينـما اسـتدارت فثمّـة كانـت. هنـاك، تتجلّى مـن بـين نخيـل البسـتان. تلتحف الصمـت. تتلصـص عليها، باسـمة.

في البـدء، كانـت تتقفاهـا بحثـاً عنـه متتبّعـة ظلـه يقـوده إليهـا. الآن، هـي ذي جميلتـه. هـذه التـي تـأبى وجودهـا عـلى أرضهـا. تغـار منهـا، هـي التـي تحـرق غيرتهـا. هـا هـي تنـاءت، باسـمة. إنهـا تبصِرهـا سـائحة في عينيـه. عجيـب لهـا أن تمنحَهـا جلوسَـها قربـه، هنـا حيـث يتربـع. (يْكفّـل، كـما يقـول). تصبر عليهـا، لأنهـا موغلـة في الصمـت؛ صمـت يتولـد في داخلهـا بألـف سـؤال.

إنـه ينظـر إليهـا. يرسـل إليهـا هـذه الابتسـامة التـي تشـع نـورا. بتولـه هـو! مـا ذا تفعـل هـي؟، ترجّـتْ:" لهـا منـك كل شيء فامنحنـي مـن روحـك نصيبـا".

هـا هـي ملهمتـه تعـود. تنهـض هـي. تقابلـه هنـاك تحـت النّخلـة الرانيـة إليه. تغبـط مـن يحيطـون بـه باسـماً لهـم مسترسـلا في سـحر حكايتـه عـن المحبـة. لوّحـتْ بحنينهـا إليـه. أبصرتْهـا جميلتُـه. حذّرتْهـا بمكـر عينيهـا الجميلتـين: "لا تقربيـه حتـى لا تحرقـك نـاري".

موجعـة هـي. قبـل أعـوام كانـت حـاصرتْ مملكـة كلماتـه فلـم يعـد يقـول إلا بهـا. يستسـلم لهـا، لهـم. وتلجـأ هـي المتعبـة إلى الصمـت. تحـدق. تقلقلهـا غيرتهـا ووساوسـها:" هـل لمسـت بسـاطته؟ هـل أصابتـك لباقـة رجولتـه؟" أغمضـت عينيهـا. امّحـت صورهـم في ذهنهـا، أولئـك المحيطـين بـه. وحدهـا صورتـه. بتولـه. وهـي.

قبـل سـاعة، كانـت شـمس نهايـة هـذا الخريـف تراقصـت لؤلـؤا عـلى خـدّه عنـد سـفح القـصر المهجـور. في عمقـه، كانـت أهازيجهـم تزهـو بأذنهـا. كانـت تسـمعهم. كانـوا يحفـرون فقـارة ذاك القـصر. وحـده كان يفهـم لغتهـم. ووحدهـا كانـت تقـف عـلى رمـل دهشـتها. فرحـتْ. خلعـتْ نعلهـا. ركضـتْ خلفـه كي لا تثـير انتباهـه. خالتـه في طريقـه إليهـا. استنشـقتْ عطـر بتولـه. كانـت هنـاك. هنـا. بينهـما، تبتسـم بحيـاء لـه، باسـتغراب لهـا. أدركـتْ، هـي الأنثـى، أنهـا تقتفـي أثـره لسـبب تعرفـه.

أخـيرا، اقتربـت منهـا. تأملتهـا. ابتسـمتْ. هـو، كان لا يـرى ولكنـه يحـس، هـو كان يبتسـم. هـي لم تقـل شـيئا. بخفـة، حالـت بينهـا وبينـه. ذارعـت ابتسـامته. كانـت تحرسـه.

هـي نـادت: "بتـول، يـا سـيدة. ليتنـي فقـط اسـتطعت أن ألمسـك لأعـرف مـن أي جنـس أنـت. قيـل: " امـرأة ينقـص أخلاطهـا الـتراب" قلـتُ: " ينقـص

أخلاطـي أنـا الـسراب". امنحينـي إشـارة عبـور إليـه، إلى بعـض منـه. روحـي يحـترق".

بكـتْ ثـم أكملت:"أنـت يـا درويشـها، خُـطّ لهـا مخطوطـة تلهيهـا عنـا حينـا، أشـغلها برهـة عنـه. أعـد لهـا مـا كنـت تحكيـه، مـا كانـت تحـب سـماعه منـك. وإن تعبـتَ دع حسـونة تغنـي لهـا وجعـي، عـلى جلسـة شـاي، لأسرقـه منهـا، لأتدثـر بـه ليلـة: "أنـا حتـما لا أشـبهها. لكـن، ذاك هـو الوفـاء".

" ريح فيها صر "

فتحتُ النافـذة، ريـحُ ذكريـاتٍ صِرّ لفـح ذاكـرتي، قرّبتُنـي منـي وقبـل أن أغلـق النافـذة ذاتها كانـت تلـك الريـح قـد أخـذت -في غفلـة قلبـي- بعضـا منـي.

"مجاعة عواطف"

ولأن الحـب جـاء بـلا موعـد، غـادر سريعـا بعدمـا لم يجـد بمدينـة مشـاعرها مقعـدا يتكـئ عليـه، كان أتى عقـب مجاعـة عواطـف.

" هلوسة "

فتـح عينيـه بالسـجن، لا يعـرف مـا حـدث بعـد ليلـة ماطـرة بالهلوسـة،حين وقـف أمـام المشـنقة كان الشـاهد الوحيـد لإدانتـه أصابـع والـده الملتصقـة بوجهـه وهـو يحـاول الخـلاص مـن سـكينه الحـادة.

" زاوية حادة "

كلما اقترب كانت المسافة بزاوية الجدار تزداد ضيقا، والصور بشاعة، اقترب لقوة من الخلف رغماً تدفعه، تقلّصت الزاوية، ألم يمزق ما تبقى من براءته، ثم اختناق تام بين ضلعي تلك الزاوية الحادة بعثره أجزاءً بكيس قمامة.

" وجع "

ريحٌ تُبعثر أمام الملأ ذكرياتها؛ يلتقط أحد اللصوص وثيقة طلاقها، يبرمان صفقة لقاء، تموت بسيف الندم و بقلب فارغ يعيش.

" خيبة "

احتمتْ بِرِداء أكاذيبه؛ قتلها صقيع الخيبات.

" صدق "

فتـح مذكـرة قلبهـا؛ قـرأ وجعهـا، ودون أن ينتظـر ابتسـامة قبـول قبّـل جرحهـا فنامـت عـلى فرح.

" كاذب "

رفع إصبع ضلالته للشهادة؛ بترته دماء الأبرياء.

" عزيمة "

تبعثرتْ خيوط أمنياتها؛ ربطتها بوريد الدعاء.

عناوين القصص:

-مُسافرة -- 09

-هَوِيّةُ مُطَلَّقة -- 12

-مرآة جدتي -- 17

-وعادتْ بِـــخُفَّيْ حَنِين -- 19

- تهمة -- 26

-اعتباطية -- 28

-إشعار مفاجئ -- 31

-أحجية الرّبيع -- 33

-ذكريات -- 35

-رحلة الحياة -- 37

-رحيمة -- 39

-حكايتي والحافلة -- 41

-تذكار تلك المحبة -- 44

-رِيحٌ فيها صِر -- 48

-مجاعة عواطف -- 48

-هلوسة -- 48

-زاوية حادة -- 49

-وجع -- 49

-خيبة -- 49

-صدق -- 50

-كاذب -- 50

-عزيمة -- 50